

تقديم :

تتكرر إذ في كثير من التصوص الأدبية نثراً كانت أو شعراً، ولا تكاد تخلو فقرة في كلام عربي من هذه الأداة.

ومع كثرة الاستعمال نجد أن معانيها تحتاج إلى تحديد، لأنه قد تصعب التفرقة بين هذه المعاني لاختلاطها بعضها ببعض. ومن أجل ذلك كانت هذه الدراسة، لإلقاء الضوء الكاشف على معاني هذه الأداة لتحديد الدلالة، وتوضيح القصد، وبيان الغرض.

و يبدو أن معاني الأدوات الأسلوبية، وصعوبة رسم الخطوط الدقيقة بين معنى ومعنى، وبين أسلوب وأسلوب هي التي حملت رجال اللغة والنحو على بسط الحديث عنها لكشف معانيها، وتحديد دلالتها.

وعلى الرغم من أنه لا يخلو كتاب نحوي أو لغوي من هذه الأدوات منذ أن ألف سيبويه كتابه فإن بعض النحويين أفردوا لهذه الأدوات كتباً مستقلة، نذكر منها :

أ — كتاب : «الأزهية في علم الحروف» لعلي بن محمد النحوي الهروي المتوفى عام ٤١٥ هـ.

- ب — كتاب : «رصف المباني في شرح حروف المعاني» لأحمد بن عبد القادر المالقي المتوفى عام ٥٧٠٢ هـ .
- ح — كتاب : «الجنى الذاتي» في حروف المعاني» للحسن بن قاسم المرادي المتوفى عام ٥٧٤٩ هـ .
- د — كتاب : «مغنى اللبيب عن كتب الأعراب» لجمال الدين بن هشام الأنصاري المتوفى عام ٥٧٦١ هـ .

أما الهروي صاحب : «الأزهية» فإنه يذكر في مقدمة كتابه : أنه جمع هذه الأدوات منفصلة عن أبواب النحوي كتاب مستقل من أجل أن تستوعب معانيها، يقول :

«سألتني — أيدك الله — أن أجمع لك أبواباً من النحو قد ذكرناها متفرقة في كتابنا الملقب بالذخائر، ليسهل عليك حفظها وقراءتها، وقد فعلت ذلك على ما التمست مع زيادات زدتها في هذا الكتاب» (١).

وأما المالقي فإنه يذكر في مقدمة كتابه أنه لما «كانت الحروف أكثر دوراً، ومعاني معظمها أشدَّ غمراً، وتركيب أكثر الكلام عليها، ورجوعه في فوائده إليها، اقتضى ماخطر من النظر أن أبحث على معانيها، وأطالع غرض الواضعين فيها، فوجدت منهم من أغفل بعضها وأهمل، ومن تسامح في الشرح وتسهل، ومن اختصر منها وأسهب، ومن ركب البسيط، وبسط المركب، ومن شتت ألفاظها وعدد، وطال الكلام لغير فائدة وردد.

فدعاني الغرض الخاطر، والرفيق العابر أن أولف فيها كتاباً يشتمل على شرحها وإيضاح ماخفى من برحها (٢) ليشتفى صدر الناظر فيه على المأمول، ويفيده — أن شاء الله — إن أخذه بالقبول» (٣).

وأما ابن قاسم المرادي فإنه يذكر في مقدمة كتابه مانصه : «فإنه لما كان مقاصد كلام العرب على اختلاف صنوفه مبنياً أكثرها على معاني حروفه، صرقت

المهم إلى تحصيلها، ومعرفة جملتها وتفصيلها، وهي مع قلتها، وتيسر الوقوف على جملتها قد كثر دَوْرُها، وبعُد غورها، فعزّت على الأذهان معانيها، وأبّت الإذعان إلاّ لمن يعانيتها»(٤).

وأما ابن هشام فإنه يذكر في مقدمة كتابه: أنه وضع هذا المؤلف مُحكماً متقناً كشف فيه المعضلات، وبين الأغلاط. يقول:

«أستأنفت العمل لاكسلاً ولامتوانياً، ووضعت هذا التصنيف على أحسن إحكام وترصيف، وتتبع في مقفلات مسائل الإعراب فافتحتها، ومعضلات يستشكلها الطلاب فأوضحتها ونقحتها، وأغلاطاً وقعت لجماعة من العربيين وغيرها فنبهتهم عليها، وأصلحتها.

فدونك كتاباً تُشَدّ الرّحال فيما دونه، وتقف عنده فحول الرجال ولايعدونه، إذ كان الوضع في هذا الغرض لم تسمح قريحته بمثاله، ولم ينسج ناسج على منواله»(٥).

وإذا كانت دراسة الأدوات شغلت أذهان النحويين واللغويين لتحديد معالمها ورسم الخطوط الدقيقة لمعانيها، فإنّ الأداة: «إذ» نالت نصيباً كبيراً من دراسة النحويين، لتعدّد دلالتها، واختلاف معانيها، وتنوع أساليبها.

وهدف من هذه الدراسة هو عرض معاني هذه الأداة في ضوء الأساليب العربيّة، وعلى هدى المعاني النحويّة، ليتبين لنا من خلال البحث والدراسة أن نضع أيدينا على أساليبها المتعدّدة ووطريقة استعمال كل أسلوب. وهذا من دون شك يساعدنا على أن نقف على أسرار الأساليب التي اشتملت عليها، واستيعاب المعاني التي تعدّدت في مجالها، وبذلك نضع التقاط على الحروف في قضية تحتاج إلى بحث جاد، لأنها على حد تعبير المرادى: عزّت على الأذهان معانيها، وأبّت الإذعان إلاّ لمن يُعانيتها.